

الفصل الأول

عصر الدكتور يعقوب صروف

١ - الحركة السياسية

إن العصر الذي وجد فيه الدكتور يعقوب صروف طفلاً وبافعاً وطالباً للعلم ومعلماً، كانت الدولة العثمانية تسود فيه البلاد العربية، وفي جملتها سوريا ولبنان، سيادة ظلم وجور. تجرد سيف الطغيان فوق الرقاب ترهبها قتلاً وشنقاً وتشريداً، والناس سكارى وما هم بسكارى، من هيبة سلطانين هما: عبد الحميد وعبد الحميد، وقد ادعى سلفاؤهما الخلافة منذ افتتاح السلطان سليم الأول سوريا ولبنان ومصر السنة ١٥١٦ م، ومنذ ذلك الحين والناس ينظرون إلى سلاطين بني عثمان المتوسدين على أريكة العرش في الآستانة - القسطنطينية (١) نظرة قدسية لا يعتورها ريب ولا يشوبها رياء.

وانتشر ظلم العثمانيين في طول البلاد وعرضها. فضاعت صدور الناس وقطعت أنفاسهم ولا سيما في لبنان، وقد تفتحت عيون أبنائه وتبهرت أفكارهم بفضل مدارس الإرساليات الأجنبية، وضجت البلدان العربية من استبداد الولاة والعمال القاطنين على الحكم، قفل الرزق وغلت الأيدي إلى الأعناق، واتجهت الأنظار نحو الهجرة إلى الأمريكتين الجنوبية والشمالية وإلى مصر الحديثة، وكانت تتمتع باستقلال داخلي تحت إشراف الدولة البريطانية (٢).

(١) استولى محمد الثاني الملقب بالفاتح، على القسطنطينية سنة ١٤٥٤ ميلادية، وبقيت الخلافة في سلاطين بني عثمان حتى سنة ١٩٢٣ فأزالتها بحركته التحريرية مصطفى كمال باشا «أتاتورك» باعث تركية الجديدة.

(٢) توافل العروبة ومواكبها خلال العصور ج ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

أت الدولة العثمانية عيون الغرب تتطلع نهمة إلى تملكها الشاسعة الأطراف ولا سيما الجزيرة العربية والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين ، فأوفق الباب العالي « السلطان » من سكرة ظلمه ومذابحه وعمد إلى تجديد أنظمة الولايات تويئناً لمرى العلاقة بالسلطة المركزية في الآستانة . فقسمت سوريا ولايتين . ولاية حلب وولاية دمشق . وقسمت الولاية إلى متصرفيات والمتمصرفيات إلى قسائمقاميات ، وفعلت متصرفية القدس عن ولاية دمشق وجعلتها مستقلة تحت سيطرتها . وفي السنة ١٨٨٨ م ، جعلت بيروت ولاية بعد أن كانت تابعة للولاية دمشق . وأما لبنان فقد كان متصرفية له استقلاله الداخلي منذ السنة ١٨٦٤^(١) تحت إشراف النول الأوروبية والدولة العثمانية .

على أن هذا التنظيم الذي قامت به الدولة العثمانية لم يضمن لبلاد شيئاً من العدل والأمن والمساواة . بل ازدادت ضعفاً وتأخرأً وجموداً . وبفترة قليلة شاهدت البلاد خلخع سلطانين هما عبد العزيز وعبد الحميد ، وتغيب السلطان عبد الحميد فأعلن الدستور سنة ١٨٧٦ م ، ثم طواه بعد مدة وجيزة . وفُضَّ مجلس المبعوثان ورجع إلى تقاليد الحكم الذاتي المطلق ، وإلى ذلك أشار أديب إسحق من أديباء القرن التاسع عشر تحت عنوان أمان وطنية قال : « إن الأمة العثمانية ممن أخذ على غرة واغتيل على غفلة . إذ نبذ بعض أوليائها الشرائع والقوانين ظهرياً ، بل اتخذوها لعبة لاعب وآلة عامل وصنعة مقامر . فما يمكن تأويله منها أولوه وما لا يمكن تأويله نبذوه وانتبهكوا فيه حرمة الحق ... فعمدنا إلى التقليد شأن المعترف به جزوه وقصوره ، ولكن لم يتخذ فيه الطريق التقصيد بل اعتسفنا وضللنا السبيل ، ونحن نحسب بلهملنا أننا على صراط مستقيم »^(٢) .

رأت البلاد طولاً وعرضاً ظلم عبد الحميد ومذابحه التي شنها على الأرمن

(١) لحة تاريخية في استمرار استقلال لبنان التشريعي ونفصان لفليب قعدان المازن - مطبعة

الأخبار بمصر من ٤٨ .

(٢) الدور لأديب ببحان - المطبعة الأدبية بيروت السنة ١٩٠٩ من ١١١ - ١١٢ .

وسكان الموصل وماردين وقتله الأحرار غرقاً في البفور^(١) فاقشـرت الأبدان
وارتعدت الفرائص ، فطنى تيار المهاجرة واعرورت البلاد العربية من خصبها
ولا سيما سوريا ولبنان . فنقصت الأرزاق وانتشرت الفاقة ، وضربت الحاجة
أظفارها فوق الأسفـاع جملة . فما رأى الأهـلون أمامهم سوى الهجرة سيلا
هرباً من حكم بائر وسلطان جائر ، وعمل قساة وجاسوسية بغیضة ملأت الأنحاء
حتى بات المرء لا يأمن على نفسه . ولا يعلم أيعيش بومه إلى غده ؟ فلا يدرى
متى يكون آخر العمر به بكلمة يلفظها عبد الحميد الفارق في أسر ولدان
وحور على حد قول ولي الدين يكن :

ضامت عقود الملك ما	بين الترائب وشحور
والشيخ ^(٢) بات فؤاده	في أسر ولدان وحور
ما زال معتصر الخلدو	د هوى ومهتصر الخصور
والجند عارية منا	كبتها مفصمة تظهر
خمص البطون من الطوى	دقت فعاتد كالنور ^(٣)

وبيضيق بنا المقام إن نحن واصلنا البحث عن تصرف السلطان عبد الحميد
بالرعية فقد نخرج عن القصد . ومرادنا تبيان المدة التي عاش فيها مترجماً ،
ويكنى أن نقول : إن الحالة كانت على أشد ما تكون سوءاً وجهاً وفقراً ،
وهذا ما دعا يعقوب صروف وزميله فارس نمر إلى ترك عملهما في الكلية
(الجامعة الأمريكية اليوم) لأسباب منها ما يتعلق بحرية الفكر في موضوع
علمي كان يؤخذ مدار جدال ونقاش عالميين^(٤) ونزحاً إلى مصر وأصدرا العدد

(١) انظر تصانيف السرد اول الدين يكن وثورة العروبة كمين سعيدة وبقية حرب بخروج

الخروج و Zaine : Arab - turkish Relation

(٢) أراد بلفظة شيخ عبد الحميد نفسه .

(٣) ديوان ولي الدين يكن مطبعة المنقطفة والقلم ص ٣٠ .

(٤) راجع فلسفة التشويع وارتقاء بحسب نظرية داروين . . . بخور لشيخ السعد . بخور أول طبعة

المنقطفة .

السادس من مجلتهما المقتطف من سنته التاسعة في القاهرة ومنذ السنة ١٨٨٨ انتقطع صروف للمقتطف وحده^(١) .

٢ - النهضة العلمية

نشأت في لبنان مدارس الإرساليات الأمريكية والفرنسية واليطالية والروسية ومن ثم الإنكليزية والألمانية ، وأصبح مركزاً لدراسة اللغة العربية وغيرها من اللغات الأجنبية ، وانتشرت المطابع والمجلات والجرائد وذلك بشهادة المستشرق الألماني « بروكلمن » قال : « في منتصف القرن التاسع عشر سارت بيروت في مقدمة الحركة الفكرية السورية لا بمجرد قواها الذاتية بل بفضل البعثات الأدبية التي دفعتها إلى الأمام ، وقد كان عمل الرهبنة اليسوعية ومطبعاتها الكاملة الجهاز أشد مفعولاً من عمل الرسالة الأمريكية نفسها . . . »^(٢)

أما نحن فلا بد لنا من الإقرار بفضل الجامعة الأمريكية في بيروت « الكلية الإنجيلية السورية » قديماً ، فقد كانت شرعة لأهل العلم والأدب ، تبت في عقول أبناء البلاد بذور الفضيلة والعلم الصحيح مقرونين بروح الحرية والتفكير الأصيل والنزوع إلى التحرر من رتبة الذل والاستعباد ، وبالإضافة إلى هذا كله فقد أحييت تراث التاريخ العربي وآدابه وجمعت له دائرة خاصة فنشرت كثيراً من المخطوطات ، ووضعت المؤلفات العلمية والأدبية باللغة العربية كأجزاء « النقش في الحجر »^(٣) وغيرها ، وانتشر طلابها في مصر والأمريكتين وأوروبا يحملون في قلوبهم مشعل الحرية والفكر الناضج طلباً للطمأنينة ومواصلة البحث العلمي في بلاد الحرية الفكرية والسياسية أمثال

(١) يعقوب صروف العالم والإنسان للدكتور نؤاد صروف .

(٢) مختصر تاريخ سورية ولبنان بقلم أحد الآباء اليسوعيين .

(٣) تأليف المستشرق الكبير كارنيلويس فاندريك .

مترجمنا يعقوب صرّوف ، وفارس نمر ، وجرجى زيدان وسعيد شقير ، ونعوم شقير ، والدكتور شبلى الشميل ، وإلياس صالح كنعان وغيرهم كثير .
على أننا لانفخل جهود الآباء اليسوعيين وكلّيتهم وديّلتهم ولا سيما الأب لويس شيخو فقد نشر كثيراً من المخطوطات وألف وجمع كثيراً من الكتب العربية وأسس المكتبة الشرقية وهى شرعة كل أديب وعالم ، كما أننا لاننسى ذكر المستشرق الكبير كارنيابوس فانديك واليازجين والبسة زيين والأسير والأحدب والشدياق وغيرهم ، والمطبعة الأمريكية التى أسست السنة ١٨٢٢ م فى جزيرة « مالطة » ثم انتقلت إلى بيروت فى السنة ١٨٣٤ واهتمت باللغة العربية ونشرت الكتاب المقدس وكثيراً من الكتب المدرسية والأدبية والعلمية .

وقامت إلى جانب هذا كله المدارس الوطنية كعين ورقة ومدرسة المعلم بطرس البستاني والثلاثة الأقمار الأرثوذكسية والكلية البطريركية للروم الكاثوليك وكلية الشيخ أحمد عباس الأزهرى وغيرها ، وقد أقبل عليها الطلاب يترشّفون فيها لبانات العلم والأدب . ومن دواعى هذه النهضة العلمية ، اتصال الشرق بالغرب . فاستنشقت النفوس ربيع الحياة الحرة وتنظّفت العقول مما علق بالأذهان من روااسب عصر الانحطاط وانصرفت المصم إلى سبل المدنية والرق تعمل جاهدة على تحصيل العلوم منصرفة إلى الدرس والمطالعة فى الكتب ولا سيما الأجنبية ، تغذية للأرواح بالأفكار الجديدة ، متخذة منها بذوراً تبذرهما فى العقول الخصبة التى نمت وأعطت أكلها رطباً جنيئاً ، وما زلنا نرتع بفضلها فى نهضتنا هذه المباركة .

٣ - الحركة الفكرية

رأينا ماكان للمدارس من أثر فعال فى النهضة العلمية فى أنحاء البلاد العربية وبين الناطقين بالضاد ولا سيما فى لبنان وسوريا ومصر ، أضف إلى هذا كله انتشار الجرائد والمجلات والمطابع ، وإقبال القراء على مطالعتها وفى مقدمتها مجلة

المقتطف : ولقد كان علم صاحبها مترجمنا « تنوير الأمة العربية ورفع مستواها الفكرى والاجتماعى »^(١). ولا ريب فى أن المقتطف قد قضى على كثير من الخرافات والأساطير كمناجاة الأرواح وكذبت البهت والخرق^(٢) التى عشت فى عقول أبناء الجيل متسربة إليها من الأجيال التى سبقتها . فجاء صروف ينير المشعل ، فبدد ظلمة القلوب ورفع الغشاوة عن الأعين المريضة . فنهض الطريق إلى الحرية الشخصية فى النفوس وأشاع العلم الطبيعى والفلسفة العقلية وغيرهما ، فكان داعية إلى حل القيود المتوارثة منذ القدم ، وما أحرانا أن ننظر إلى بعض كلماته منها « مقياس العقول » قال : « ما من أحد يتعذر عليه أن يرى الفرق الشاسع بين رجل حكيم حصيف الرأى حسن النظر فى العواقب وبين بليد أبله لا يعنى شيئاً أو غرّ أحمق يتقلب مع الأهواء كما لا يتعذر على أحد أن يحكم بأن الحجر الكبير أثقل من الصغير إذا كانا من نوع واحد . ولكن النسبة الحقيقية بين الحجرين لا تعلم إلا بالمقياس أو بالميزان وكذلك النسبة بين العقول لا تعلم تماماً إلا إذا وجد لها مقياس . وكل معارف الناس لا تبلغ مبلغ العلم الحقيقى ما لم تقس بمقياس حتى تظهر النسبة بينها ، والمقياس أساس كل العلوم الطبيعية والكيمائية »^(٣) أى بهذه الكلمات وأمثالها التى ترواها فى تضاعيف مجلدات المقتطف تحررت العقول من ربة التقليد والأساطير ، وبعث بالأمة العربية نهضة فكرية ما زال أثرها سائراً حتى يوم الناس هذا . لما نشره من مختلف القضايا العلمية بأسلوب له صبغته العامة متحاشياً فيه الجفاف ، وكان إلى جانب هذا يثبت فى مقالاته المترجمة ملاحظاته الشخصية واختباراته الخاصة فيزيد فى قيمتها^(٤) ، وقد حجب علم الرياضيات إلى القراء بفتح باباً للمباحث الرياضية فتجرد الهواة والمتخصصون إلى حلها سواء فى ذاك الحساب والجبر والهندسة أو غير ذلك .

(١) حناخياز : المقتطف ج ١ مجلد ١٣ ص ٤٣٠ .

(٢) راجع المنتخبات .

(٣) المقتطف ج ١ من المجلد الثالث والسبعين ص ١ .

(٤) راجع المنتخبات .

وحسب ما كتب في مجلدات المنتطف دون أبعد ما يكون عن البت في الأمور
والجزم الذي يجزمه بعضهم ، كأن الحقيقة أصبحت في متناول يدهم أو أنها في
جيبهم . ومنتطفه الذي لم يتخل عنه البتة هو أنه لم ينلق القاعدة العلمية إلا
مع شيء من التحفظ وإن كانت نازلة منزلة الحقائق . فقد كان يبقى الباب
مفتوحاً على مصراعيه لفتريات جديدة ، وكان كثير التأنى والتروى قليل
التسرع . رأيت الناس عن التهور ، وإن نحن أجلسنا النظر في مجلدات المنتطف
رأينا أنه لم يرد على مجلة « المشرق » بتهور وعصبية بل نراه قد عمد إلى مقالة
أنشأها السر « برترام وندل » أستاذ الأنثروبولوجيا في كلية « ميكل » فترجمها
ليرد على متهميه بتأييده لمذهب النشوء والارتقاء . فأثبت بذلك ما قاله في باب
المراسلة والمناظرة « مناظرك نظيرك » . وعلى الجملة فهو بمقتطفه قد بعث ثورة
فكرية ، وحطم قيود الخرافات والأساطير ، فلا عجب إذا عددناه في مقدمة رجال
النهضة الذين تركوا أثراً لا يمحي وفضلاً وافراً لا ينسى .

أما مقالة « برترام وندل » فتتناول مذهب النشوء والارتقاء وتؤيد مذهب
دارون ، ويضرب على ذلك أمثالا بطريقة علمية واضحة لا يشوبها لف
أودوران .

ومذهب النشوء والارتقاء مذهب قامت حوله مجادلات عنيفة وأبحاث
عديدة ، ولكل واحد من تصدى لهذا البحث نظر ، ووجهة سلوكها
بطريقته العلمية (٢) .

(١) مجلة المشرق أنشأها الأب لويس شيخو اليسوعي في بيروت سنة ١٨٩٨ .

(٢) انظر كتاب فلسفة النشوء والارتقاء لشبل الشميل في جزأيه الأول والثاني مجموع مقالات له .

وكتاب جهال الدين الأنفاني في الرد على دارون .